

حوارية السرد في رواية "دم النسيان" للحبيب سايح

أ. مرابطي صليحة

جامعة مولود معمري

طرح ميخائيل باختين Mikhail Bakhtine مفهوم التعددية اللغوية كقوام لحوارية اللغة استجابة معارضة لما طرحه الشكلاونيون الروس والأسلوبيون المتأثرون بألسنية دوسوسير De Saussure الذين حددوا اللغة كبناء مستقل له أنساقه ودلالاته وقوانينه وضوابطه المكتفية بنفسها، والتي يمكن أن تدرس دراسة علمية دقيقة، فطرحوا تظاهرات شعرية النص الأدبي وحددوا خصائصه الشكلية ووجدوا في الألسنة الحديثة منبعا يستمدون منه، المصطلحات، ويسعفهم على قياس البنى الأدبية بمقاييس البنى اللغوية، وعملت الأسلوبية على حصر تحليلاتها على الأسلوب واللغة، متحاشية الخوض في التناغمات الفردية الكامنة وراء أسلوب الكاتب أو الشاعر، وفي مواجهة ذلك طرح ميخائيل باختين مفهوم الحوارية كمؤسس لصورة اللغة تجتمع فيها التعددية اللغوية بالشعرية في علاقات حوارية توسع دائرة المعنى من داخل النص إلى خارجه بالاعتماد على خلفية تداولية عبر لسانية Translinguistique تركز على تصوّر فلسفي غيري يتبنى معطيات التحليل التاريخي للمجتمع وخلفية سيميائية نقدية تسائل النص الروائي من منظور تشريح العلائق الداخلية والخارجية في أفق تحليل سوسيلوجي لأشكال التعبير الايديولوجي⁽¹⁾.

هذه الخلفيات الحوارية التي تمنح للغة في النص الأدبي توجدا متميزا ومختلفا وضعها الحبيب السايح في اعتباره عندما كتب رواية "تماسخت دم النسيان" ليصنع من اللغة موضوعا يطغى على جميع مواضيع الرواية، وسنحاول في هذه الخطوة النقدية البسيطة تسليط الضوء على هذه الخلفيات الحوارية في الرواية، وعلى التقنيات التي تبني كيانها بما يتماشى مع خصوصية اللغة العربية وخصوصية الكيان السردى لتماسخت.

إنّ أول ما يواجهنا عند قراءة تماسخت هو هذا الاندفاع القوي للغة، القائم على التعدد والكثافة⁽²⁾ والسرعة في صورة نسميها انبثاقا، وما نقصده هو الانفجار المتسم بالخطية والتوالد والسرعة، تتواجد فيه اللغة كموضوع، وتنبثق من نفسها في خطية متتابعة ومتسارعة،

سرعة توحى بالانفجار إلا أنه انفجار خطي سريع أساسه التوالد الصوري، الذي ينتج توالدا لفظيا وصيغيا، وظف فيه مختلف صور اللّغة البلاغية، فيكون الانبثاق قائما بذلك على ميزتين: الأولى هي ما أسماه باختين ظاهرة تعدّد الأصوات اللغوية والثانية هي الترابط التوالدي لهذه العناصر اللغوية التي تتبثق من بعضها، وبالتقاءهما تتجسد ظاهرة حوارية اللّغة.

إنّ عالم اللّغة في الرّواية عالم حوارى تتربط فيه البنى والعناصر والأجزاء الداخلية والخارجية للرّواية، مشكلة علاقات حوارية تختلف باختلاف الفكرة واختلاف الأسلوب، " فالنزعة الحوارية ليست تلك الحوارات الخارجية المعبر عنها من خلال التكوين والتي تجريها الشخصيات بل إنّ الرّواية المتعددة الأصوات ذات طابع حوارى على نطاق واسع وبين جميع عناصر البنية الروائية توجد دائما علاقات حوارية أي جرى وضع بعضها في مواجهة البعض الآخر مثلما يحدث عند المزج بين مختلف الألحان الموسيقية"⁽³⁾، وهذا المزج بين المختلفات في تماسخت هو أساس التعدد الحوارى وتقابله والذي تنسقه ثلاث مظاهر حوارية عامة تكوّن تماسخت هي: تعدد المواضيع، والتعدد الصوتى والتنوع الكتابى الصيغى، وتندرج تحت هذه الأطر مجموعة من الظواهر الحوارية الجزئية التي تتسم بالانبثاقية من بعضها في ترابط حوارى يكوّن الصورة العامة للغة المهيمنة على كلّ أجزاء البنية السردية في الرّواية، وأهم هذه الأطر هو المقام السردى الذي تتبنى فيه الموضوعات السردية.

فمن المؤكد أن لغة السرد لها كيانها الخاص، لذلك فكيانها العدولى المعتمد أساسا على عدول أسلوبى شامل لا بدّ أن يتأسس أولاً على تصوّر حكائى مختلف يتماشى مع هدف اللّغة الموضوع القائم على التعدد والكثافة، وهذا التصور مبني على التعدد الموضوعاتى المنتج للتكثيف السردى.

1- التعدد الموضوعاتي:

يعتبر باختين مظهر تعدد المواضيع من أهم مداخل التعدد اللغوي في الرواية، قائلاً: إن جميع تيمات الرواية ومجموع عالمها الدلالي وخطاب الكاتب وساردية والأجناس التعبيرية المتخللة وأقوال الشخصيات هي الوحدات التي تتيح للتعدد اللساني الدخول إلى الرواية⁽⁴⁾. والموضوع يقصد به الفكرة وتتواجد في نقطة الالتقاء الحواري بين شكلين أو أكثر من أشكال الوعي⁽⁵⁾، مما يعني تواجد الموضوع في مجموعة دلالية مجسمة أو مكبرة أو من إطار يسمح بتوحيد عناصر نصية متقطعة تعبر عن تصور أو أفكار شمولية. لكننا إذا بحثنا في رواية تماشخت عن مجموعة دلالية مجسمة أو مكبرة تواجهنا مجموعة عناصر نصية متقطعة، ليس أسلوبياً، ولكن سردياً تنتاب بشكل سريع تماشياً مع سرعة التفكير والتأمل التي يقوم بها السارد فيما يحيط به، وفيما يحمله من تذكارات ومن خيالات وفيما يجول بوجدانه من مشاعر وأحاسيس، فنتمظهر صور الواقع المرئي مع مواضيع الذكرى وصورها ومواضيع الخيال وافتراضاته، وفقرات البوح، والاعتراف المعبرة عن الحالات النفسية المتراكمة للسارد والشخصيات، وهذا التراكم الممتزج بالتداخل في العرض يتم على مستوى المقطوعات، حيث تستعرض في مقطع واحد مجموعة من الموضوعات الصغرى الجزئية التي تتمظهر على مستوى الجملة، فيبدو الفعل العام فعل نقل ورصد تتجمع تحته عناصر نصية تتراوح في نوع واحد من الملفوظات السردية سماها غريماس Grémas ملفوظات الحالة⁽⁶⁾ وفي انبثاق هذه الملفوظات تنبثق المواضيع المتتابعة.

1-1- انبثاق الحالات: تتظافر في تماشخت مجموعة هائلة من ملفوظات الحالة المتعلقة بالوضع الذي يوجد فيه السارد وباجتماعها تتشكل صورة تراكمية للغة، مكونة من تعدد الصور التعبيرية عن هذه الأوضاع.

ويستند هذا العرض على فعل أساسي يقوم به السارد هو فعل التأمل والرصد من نافذة الغرفة ويستمر هذا الفعل طوال الرواية، ويتحول التذكير بالتواجد في هذا الموقع لازمة يقتطع بها السارد موضوعاته في مواقع عديدة ومتفرقة منها. لتبدو بذلك في مجملها مجموعة استغراقات تأملية في الأشياء المحيطة به وفي حاله النفسية وفي ذكرياته الماضية، وإذ يبدو السارد من هذا الموقع في حالة ثبات منزلة بين ثلاثة أوضاع ذات حالة، ذات قول، ذات رغبة، فإن هذا الثبات أنشأ بالموازاة حركية على مستوى اللغة يؤسسها التنويع التعبيري عن

وضع واحد وثابت تنتج عنه كثافة حالية ولغوية، الأولى يصنعها الثبات الحدتي الذي يبقي الذات في وضع واحد لا يتغير بأيّ فعل تحويلي فيكون الفعل في الدرجة الصفر، والثانية ناتجة عن الحركة اللغوية التي تشكلها المظاهر البلاغية العاملة على توسيع مدى تصويرية الخطاب الأدبي بالتنوع اللفظي والصيغي المتعدّد الواصف لحال واحدة.

وبهذا النسق المقصود تستعرض اللّغة قدراتها الإنجازية التعبيرية في سبيل تحققها كموضوع. ومن أمثلة ذلك قول السارد: " فصل الزجاج بنية وبين الغابة حيث ودّ أن تتلاشى صرخته المكظومة كما ودّ أن لو بعث فيها حيوانا وحشا أو طائرا ليملكه أن يختار وساورته رغبة في صدم الزجاج برأسية فمواعيده ورغبته ومواقبته وفرحه رهنتها حماقة السافرة الشامطة معلقة دونه أي سبيل إلى غير موته على ألا يكون بسيطا تافها لينتصر على واقعه المذل أياه كعبد خصي" (7).

تبدو في هذا المقطع حالات الرغبة التي تساور الذات في الخروج من واقعها الذي يفصل بينه وبين خارجه، زجاج النافذة فتتقاذفه الرغبات، ويتمثل ملفوظ الحالة الأساسي في حال الانعزال بالغرفة وتتفرع عنه تعبيرات وصفية تدور في نفس الوضع وفي مجموعة من الحالات الفرعية الناتجة عنه وهذا ما يحقق ظاهرة التعدد اللغوي المعبر عن حال واحدة وثابتة.

وما يتميز به ملفوظات الحالة التي وضعها غريماس هو أنها ذات طابع حوارى، وذلك أنّ الذات إذا ما كانت متصلة بموضوع ما فإنّها منطقيا منفصلة عن موضوع آخر ضديد، قد لا يحضر في سياق السرد ولكنّه يحضر في الدلالة المستترة وفي ذهن القارئ والعكس أيضا. فحال الاتصال بموضوع العزلة مثلا تقرأ أيضا بأنها حال انفصال عن الحال الضديدة لها وهي الانطلاق والتحرر من هذا الوضع. لذلك فإنّ دائرة التعدد اللغوي بهذا الشكل تتوسع لتشمل كلمات لم يكتبها الكاتب ولكنها موجودة في الدلالة المحيطة بما كتبه، وتحضر في ذهن القارئ ضمن الحقول الدلالية المحيطة بالكلمات. ويزيد هذا الوضع اتساعا بظواهر جزئية تقوّي انبثاق الحالات هي "أفعال الحالة"؛ ونقصد بها الأفعال القولية والأفعال الوصفية من مثل فعل "التأمل" و "التذكر" و "الوصف".

وكذلك ظاهرة "التوالد التشبيهي" ونقصد بها توالد الحالات من بعضها عن طريق علاقة المشابهة وهي من أساليب التوالد السردى كما هي وسيلة من وسائل التكنيف البلاغى.

1-2- تعدد الشخصيات: يقوم السارد في تماسخت وكذلك ضمير الغائب بأفعال استعراضية دائرة بين التأمل، والتذكر، والإقضاء والحكي، تجعل هذا العنصر الأساسي في البناء الحكائي وهو الشخصية، متمظها بشكل مكثف واستعراضي، وما نقصده هنا ليس مختلف المقولات التي سعت إلى توسيع ماهيتها لتشمل القيم والجماد والحيوان والإنسان، وإنما نُقِّص مجالها لنحصره تعبيراً فحسب عن التواجد المؤنسن الذي قد يتمظهر عبر اسم عَم أو اسم إشارة أو ضمير.

إنّ تواجد هذا النوع من الشخصيات يثير تمظهر ما أسماه جيرار جينيت Gérard Genette وقبله ميخائيل باختين بالخطاب المؤسلب؛ ويقصد به تقليد المؤلف للشخصية في فحوى أحاديثها ولهجتها الفردية، وتكثر الأساليب لتصنع تنوعاً لغوياً كلما تعددت الشخصيات التي يعبر كل منها عن لهجة فردية خاصة تمثل بتواجدها حسب جينيت: "سمة لغوية متواترة لهجية أو موسومة اجتماعياً اكتساباً أو اقتباساً مميّزاً، زلة أو هفوة أو سقطة موحية ولا تقلت أي منها من تلك العلاقة الإيجابية مع اللّغة" (8).

وتتعدد الشخصيات في تماسخت وتتكاثر إلى درجة ينوع فيها الخطاب المؤسلب بشكل كثيف منها ذوات تعرضت لفعل الموت وأخرى تنتمي إلى بيئات مختلفة كالمغربية والتونسية وأخرى تاريخية تحضر من باب الاستشهاد، وهذا التحديد الذواتي يؤسس أشكالاً كثيرة من الخطابات المؤسلبة والهجينة ومجموعة من المواضيع المتعلقة بأشكال الوعي المختلفة، المنبثقة من الشخصيات أو أشكال الوعي المحيطة بها والخارجة عنها. وما تتميز به هذه الشخصيات هو أنها ليست جوهرية ومحدّدة، إنّها من النوع الذي يزداد على مرّ الصفحات وغير قابل للتحديد والإمساك، فهي كما سماها جينيت كائنات هروب⁽⁹⁾ غير متماسكة مجزأة وغير مكتملة. وهذا التقديم غالباً ما يكون مدبراً من المؤلف بعناية فائقة لأنّه يكون مرافقاً بتماسك لغوي مبالغ فيه ومنوع. والتحوّل من شخصية إلى أخرى ومن خطاب إلى آخر ومن خطاب الشخصية إلى خطاب الكاتب الذي يقلّده يسميه جينيت "دورانية"، وهي خصيصة لغوية لصيقة بالشخصية يقصد بها استدارة اللّغة الدائمة إلى خطاب ما عن آخر ونظراً للتعدد الذي يسم الشخصيات فإنّ الاستدارات اللغوية كثيرة، وهي بتنوعها المتجزئ والمتناوب تشكل مجتمعة دورانية اللّغة نحو صورتها⁽¹⁰⁾، وهذه الظاهرة تلعب دوراً مهماً في الظاهرة العامة لتعدد المواضيع الجزئية وتقطعها،

وهذا يساهم أيضا في تقطع ظاهرة لصيقة بالمواضيع وهي الموضوعة أو التنبير لتتحول إلى اللاتبير أو التبير في الدرجة الصفر.

1-3- اللاتبير: إذا ما بحثنا في معنى البؤرة نجدها تعني الحفرة، والتبير المشتق منها معناه الحفر في المقام السردى ويعني الاستمرار في بحث النقطة ذاتها مدة طويلة إلى أن تصبح بؤرة سردية، وهذه النقطة هي الموضوع، فهو التواجد الوحيد الذي يبحث فيه أو يقع عليه الفعل من بين كل العناصر السردية، وهو خاصية لصيقة بالمواضيع لذلك يسمى أيضا موضوعة ويقول في ذلك عبد القادر الفاسي الفهري: " التبير Focalisation كما يسميه بعض أو الموضوعة Topicalisation كما يقول بعض آخر عملية صورية يتم بمقتضاها نقل مقولة كبرى من مكان داخلي إلى مكان خارجي" (11)، هذا النقل يعني الكلام في ذات الموضوع من مكان يعتبر مركزيا إلى مكان فرعي، أي تناوله من جهات مختلفة ومن منظور لآخر. وبؤرة السرد في تماسخت هي وقوف السارد أو ضمير الغائب "هو" على نافذة الغرفة والنظر من أعلى الطابق إلى أسفل الشارع وإلى البنايات المقابلة وإلى حاله المنحوسة الوحيدة وإلى ذاكرته التي تحمل كماً من المواضيع الماضية وإلى وجدانه المنفعل والمتأثر بما حوله وبما فيه إلا أن هذا الموقف ليس قيادا إدراكيا يتحكم في المادة المعروضة لأن المقاطع التي يرد فيها متباعدة بالمقارنة مع حجم الموضوعات الكثيرة المتخللة، والتي تتسم بالتعدّد والجزئية والتقطع والانتقالات من موضوع إلى آخر دون الخوض فيه، وهذا الخوض المفترض هو التبير.

إنّ العمل الحكائي في تماسخت غير مرتكز على خطوات حديثة بل هو مجموعة من الجزئيات المتضامة لغويا، وقد يزيد من تباعدها الحدتي امتزاج اللغة بالغموض التخيلي، الذي تلبسه إياها التشبيهات خاصة منها الأسطورية والاستعارات والكنائيات المنتشرة بكثافة في الرواية.

هذا النسيج اللغوي مكوّن من مواضيع غير مبالاة فلا مكان لإطالة الكلام في نقطة واحدة واجترار اللفظ من أوجه مختلفة، إنّما اللاتبير الذي معناه "أنّ لا يكون هناك قيد مطرد إدراكي أو تصوّري يتحكم في المادة المعروضة" (12) هو وسيلة التعدّد الموضوعاتي ومنتفس التراكم المعرفي الذي يخنق الكاتب، وصورة لهذا الواقع المتشظي المزدهم بتراكمات الرؤيا والتبصر من النافذة.

إنّ الاستعراض الذي هو الهدف الأساسي للكاتب جعله يتبنى سردية التعدد الموضوعاتي ليضمن تعددا لغويا، وهذا المجال يتم فيه التنقيب عن الممكنات البنائية بدل التبئير الكلي على واقع وموضوعات بائدة، حيث تتراجع بؤرة النص في كثير من مواضيع الرواية لصالح بؤر فرعية احتلت فيها اللغة دورها المميز.

وعندما يعتني الكاتب باللغة أكثر في البناء الروائي، وتصبح الكلمة والجملة أهم دور في الحكى فإنّ التبئير ينتقل من التواجد على مستوى التكوين العام للموضوعات الحديثة إلى مستوى التكوين الخاص بالجملة، ليعمل على محيط الموضوعات الصغرى التي وضعها القانون النحوي كمكوّن في حدود بناء الجملة. "والتبئير الجملي هو نقل مقولة كالمركبات الاسمية والحرفية أو الوصفية...الخ من مكان داخلي في الجملة إلى مكان خارجي عنها، أي مكان البؤرة المحدد بالقاعدة النحوية"، أي هو تغيير في الرتبة الأساسية للمركبات الجمالية بتقديم ما اعتاد التأخير وهذا خروج من البؤرة وتأخير ما اعتاد التقدم وهذا شكل من أشكال العدول النحوي.

إنّ صورة التقديم والتأخير أسلوب يميّز به الحبيب السايح في تماسخت وفي كلّ كتاباته وهو يبرز في هذا الموضوع خصوصا عبر تقدّم المركب الاسمي عن الفعلي كقوله مثلا: " من زده يحس نفسه تشكل" التي أصلها "يحس نفسه تشكل من زده"، ونحن لا نقصر التبئير الجملي على التقديم والتأخير، بل نعتبر كل العمليات المتعلقة بالحفر البنائي اللفظي منه والجملي في تماسخت تبئيرات لغوية لأنّ المسألة ليست عملية حفر في الموضوعات البائدة إنّما عملية حفر في الممكنات البنائية اللغوية، هذه الممكنات التي يفتح لها التعدد الموضوعاتي مجالا واسعا وحرّا، تتحاور فيه إمكانيات القول القائمة على الاختلاف والتقابل، لتتحقق بذلك حوارية اللغة بالاعتماد على حوارية الموضوعات وبالتالي حوارية السرد.

الإحالات:

- 1- يراجع، محمد برادة، تقديم لكتاب "تحليل الخطاب الروائي" لمخائيل باختين، ط1، دار الفكر للنشر، القاهرة 1989.
- 2- الكثافة طرح تدوروف Todorov بـ opacité وترجمة أيضا ثخانة وتعني التضخم في المادة المسرودة وانمحاء للحدث وحضور للمظاهر البلاغية، يراجع: عثمانى الميلود، شعرية تودوروف، ص38.
- 3- ميخائيل باختين، شعرية دوستيوفسكي، د.ط، ترجمة جميل نصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 1986، ص59.
- 4- يراجع: ميخائيل باختين، تحليل الخطاب الروائي، ص37.
- 5- يراجع، باختين، شعرية دستيوفسكي، ص109.
- 6- يراجع: حميد الحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، 1991، ص34.
- 7- الحبيب السايح، رواية تماسخت دم النسيان، ط1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2003، ص35.
- 8- يراجع جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ط3، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر الحلبي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص196.
- 9- يراجع: جينيت، خطاب الحكاية، ص197.
- 10- يراجع، جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ص197.
- 11- عبد القادر الفاسي القهري، اللسانيات واللغة العربية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2003، ص114.
- 12- جيرالد برانس، المصطلح السردي، ترجمة عابد خزاندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ص87.